

دور البحث العلمي في ضبط المفاهيم والمصطلحات علم التأثيل أنموذجًا

How Academic Research Contributes to Enhanced Definitions of Terms The Case of Etymology

للبحث العلمي دورٌ جوهري في ضبط مفاهيم المجالات المعرفية المتعددة التي يكون فيها التصور العام حاضرًا بقوة، وبخاصة ما تعلّق منها بالمتداول اليومي، المتميز بدلالة ما، وذات حمولة ثقافية وتاريخية لها ارتباطات بالواقع المعيش لكل مكونات المجتمع؛ سواء أكان قبليًا أو حضريًا. والمفهوم ذاته محدّد في الزمان والمكان، ويؤرشف لهما وفق ما يرمز له وإن تغيّرت الحقب لتداوله بحمولاته التي لن تبتعد نهائيًا عما كان يعنيه ضمن المنظومة الثقافية لمجتمع ما. والإيتيمولوجيا هي الوحيدة القادرة على الحفاظ على الدلالة العامة للمفهوم وضبطه عبر مساراته المتعددة التي لن تكون في النهاية إلا معبرة عن المتداول ثقافيًا مع تحديدات طوبونيمية في بعدها سواء الرمزي أو الواقعي.

كلمات مفتاحية: التأثيل، الدلالة، المفاهيم، الطوبونيميا، المجال، النسق.

Academic research plays a vital role in constantly improving the definitions of technical terms across all fields of knowledge, including fields where public awareness plays a major role and where words and phrases carry considerable cultural baggage and connotation. This reflects the reality that all phrases and their meanings are rooted in time and place: while the temporal and geographical contexts in which specific phrases are used may change, the words never completely lose touch with their original meanings. Etymology is, in this regard, the only academic discipline capable of preserving the original meaning of words throughout their various transformations. The rigorous process of philology is what ultimately allows the field of etymology to continue to be relevant even as words are separated from their original meanings contexts.

Keywords: Etymology, Semantics, Terminology, Linguistic Typology, Syntax.

* أستاذ التعليم العالي، مؤهل تخصص التاريخ الوسيط، مكون بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، فاس، المغرب.
Professor of Higher Education, History of the Middle Ages, Instructor at the Regional Center for Pedagogy and Training in Fez, Morocco.

تقديم

ظلت العلوم الإنسانية حبيسة أجهزتها المفاهيمية وكأنّ ذلك كفيلاً يجعلها بمنأى عن الوقوع فيما يخلخل صرامتها النظرية، التي انبتت عليها كل التصوّرات التي اعتبرت منطلقاً للعديد من الأبحاث في مجالات لها دلالة في الزمان والمكان من دون تغييب لأبعادها الاجتماعية من حيث هي المحدّدة لكل منطلق نظري. فإذا كان البحث يعيش طفرة بعد أخرى، فإنّ ذلك مرده انغماس القائمين على الشأن العلمي في القيام بكل ما يعطي أفقاً لمستقبل التدقيق في الأجهزة المفاهيمية، التي ترهن الحقل المعرفي ومستقبل الكتابة فيه من دون أن تترك المجال للدلالات الخاصة للمصطلح للتعبير عن غير ما يحدّد الدال ويشكل هويته التي تتحقق بها قوانين الوجود الفعلي للمفهوم/ المصطلح مع تعبيراته أي "إظهار التضمينات الوجودانية المضمرّة لهذه التعابير"⁽¹⁾.

لذا، فإن إشكالية البحث العلمي في معناها الدقيق لا تحتاج إلى شرعية فكرية بقدر احتياجها إلى دليل عملي للتوجيه والإجابة عن أسئلة واقع دائم التغير، مما يفرض استحضر علم التأثيل⁽²⁾ لضبط العلاقات بين المكون المفاهيمي ودلالته؛ أي الانتقال إلى ما هو واقعي ضمن المجال المتحول لمؤسسة منتجة لمفاهيمها ودلالاتها ضمن سياق اجتماعي وثقافي يعيد إنتاج قيمه المعبرة عن تاريخه، خاصة أنّ السياقات التي يتم فيها التوظيف المفاهيمي تحيل في العديد من الأحيان إلى ما لا وجود له في التداولات اليومية مما يزيد الضبط الدلالي صعوبة، ولا سيما إن كان الحقل الدلالي ينتمي لثقافة لها سياقاتها التاريخية التي أدت إلى إيجاد مدلول ذي حمولة سوسيوثقافية وعمق تاريخي يمتح من تراث المجتمع. لكن ما مدى علاقة المفاهيم الدالة على الواقع بما هو اجتماعي وأدوارها في إنتاج وإعادة الإنتاج الثقافي للمعيش؟

بقيت العلاقة ثابتة بين مكونات المجال والبحث العلمي، وهو ما يلاحظ عبر استدماج كل دقائق الواقع وتحويلها إلى نظرية عامة وتصريفها لغويًا عبر مفاهيم تراعي بشكل أساسي الجانب التداولي في بعده الاجتماعي⁽³⁾، ودلالة ذلك في المعيش اليومي لمكونات المجتمع. إن المفاهيم تعبر عن وجودها الفعلي عبر علاقاتها التي تشكل نسيجًا لا غنى عنه لإبراز حقيقة ما ترمز إليه، مما يجعلنا نؤكد على أن الواقع في تشكله العياني بيدي وجوده من خلال مواقعته Toponymie المحولة إلى مفاهيم دالة.

1 بول ريكور، *الذاكرة، التاريخ، النسيان*، ترجمة وتقديم جورج زيناتي (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2009)، ص 563.

2 ظهر هذا العلم بشكل جلي مع التقعيد اللساني، وقد تمّ استثمار كل الأبحاث اللغوية في هذا المضمار من جميع الحقول المعرفية ضمناً للضبط والتدقيق، وهذا ما دفع مجموعة من الباحثين لتعريف التأثيل الذي يقابله مفهوم *Etymologie*؛ وهو العلم الذي "يسمح بإدراك سبب وجود ألفاظ بعينها نستعملها للدلالة على هذه الفكرة أو ذلك الشيء". انظر:

V. Nyckees, *La Sémantique* (Paris: Belin, 1998), p. 65.

واعتبره آخرون "العلم الذي ينظر في أصول المعاني وأزمانها وأطوارها. أو إن شئت قلت تاريخها"، انظر: طه عبد الرحمن، *فقه الفلسفة* (الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 1999)، ص 135. واعتباراً للطبيعة التي تم تعريفه بها، فإن استعمالنا لها سيكون وفق ما تقتضيه طبيعة معالجتنا لما هو تاريخي وارتباطه بالطوبولوجية ودلالة ذلك في السياقات التي تم توظيفه فيها. وقد أكد جون كلود ماركو أن الكلام "عن أصول وتطور المفردات ... يستلزم منا حذرًا كبيرًا عند استخلاص نتائج إيتيمولوجية كلمات لغة ما"، انظر:

J. C. Margot, *Traduire sans trahir. La théorie de la traduction et son application aux textes bibliques* (Lausanne: L'âge d'Homme, 1979), p. 66. وهو ما يجعلنا نأخذ في الاعتبار البيئة الثقافية للغة ومدى ارتباطها بالمعنى اليومي، وتأثير ذلك في المعنى الدال للفعل الذي له أثره في مجتمعات نحت لغتها من متطلباتها التي بها وجدت.

3 أكدنا على الجانب المرتبط أصلاً بما هو اجتماعي لأن اللغة هي نتاج أفراد والمعبر عن كل ما يمور داخل مجتمعهم. لمزيد من الاطلاع على هذا الجانب يراجع: Maria-Teresa Cabre, *La terminologie: Théorie, Méthode et application*, Monique C. Cormier et John Humbley (trad.), (Paris: Ottawa/ Armand Colin, 1998).

التأثيل والدراسات التاريخية

ساهم البحث التاريخي في ضبط المعطيات الخاصة بالحدث وسياقاته التي كان لها إمكانية دفع "المغالط في حكايات الوقائع"⁽⁴⁾؛ لأن لها تأثيراً مباشراً في مجريات الأحوال باعتبارها "لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر"⁽⁵⁾؛ مما يطرح مسألة علاقة المفهوم بزمان ومكان الحدث الذي له قوة وحضور خاص فيما نبحت فيه لكون "كتابة التاريخ هي أولاً ذاكرة مُورَشَفَة"⁽⁶⁾ مع تأريخ لحوادث المجال في ديناميتها وتصريف للغة التي تعطيه شرعية الوجود المرتبطة أساساً بالأنشطة الاجتماعية الممارسة داخله سواء تلك الواعية أو لا. فالتحويلات الطارئة على المجال بالأنشطة هي تداولات للمصالح المعبر عنها بمعادل رمزي والمحولة إلى تعابير تعتمل داخل "فضاء عمل فيه الإنسان والتاريخ"⁽⁷⁾ من أجل تخليد الحدث الذي يتحول لمفهوم يشتغل عليه التأثيل *Etymologie* بمستويات مختلفة بدءاً من المستوى اللساني الخالص إلى المستوى التاريخي الذي تحضر فيه العلاقات الاقتصادية والسياسية ويعكس كل ذلك في التداولات الثقافية التي تظل "ذاكرة للمكان" مُسترجعة عبر المفاهيم/ المصطلحات كما هو الشأن مع الأنشطة الممارسة في الشأن اليومي من دون أن نضع لها سجلاً ما. عبر هذه التصورات، نرى أن "التاريخ كعلم يجد نفسه معنياً بطريقة غير مباشرة بولوج علم اللسانيات"⁽⁸⁾ الذي يمكن من ضبط المفاهيم وجعلها ذات دلالة بالنسبة إلى وجودها الفعلي عبر العلاقات التي تشكل نسيجاً لا غنى عنه لإبراز حقيقة ما ترمز إليه. إن المفهوم لا يمكن ربطه بمدلوله إلا من حيث هو تعبير أساسي عما هو عيني في ارتباطه بتطوره المرحلي والذي تفرد ضمن منظومة فكرية ذات بعد اجتماعي واقتصادي معبرة عن انشغالات الحقل الدلالي بما هو عياني ومعيش.

إن عدم ضبط المفاهيم/ المصطلحات مرده الجهل بواقعها السوسيوثقافي الذي أنتج شبكة عامة، لها ارتباطات بالمنظومة التي تتحكم في العلاقات الداخلية التي تنبني عليها كل تواريخ المجتمع أو "المجتمعات التي تظهر لنا دائماً في علاقة غير مستقرة، قلما تكون ثابتة أو محفوفة بالمخاطر مع شروطها الخاصة لإعادة الإنتاج [التاريخي]"⁽⁹⁾ لها من دون أن يؤثر ذلك في مساراتها التي هي في النهاية مواضيع للدراسة. وارتباط المفهوم/ المصطلح بمكان ما هو إبراز لهوية قد تتعدى الزمان لتتخلص منه، لـ "أن التخلص من الزمنية عبر التجريد لا يكون إلا بهدف التحكم في كل المضامين الزمنية"⁽¹⁰⁾ التي كانت وستظل محايثة له على الرغم من تبدل الأحوال والمعيش. معنى ذلك أن كل مفهوم/ مصطلح هو مسار لتقعيد الواقع بما يحمله معناه دون استقلالية عن دلالاته الحقيقية، التي لا تشبع الفضول بل تحقق وظائف أخرى⁽¹¹⁾ في التداول اليومي لكل الأفراد سواء حمل هذا مضموناً اقتصادياً أو تعبيرياً عن فكرة لها ارتباطات اجتماعية، لا سيما أن وضعية المجتمعات وما يعتمل بها يخضع لما هو ضروري ومتداول عادة⁽¹²⁾، مع عدم اللامبالاة بمفهوم الزمان

4 عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق وتقديم عبد السلام الشداوي، ج 1 (الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، 2006)، ص 13-14.

5 المرجع نفسه، ص 41.

6 ريكور، ص 225. يرى ريكور أن عملية الأرشفة تتم عبر مجموعة من الشروط من بينها التغيرات التي تشمل المجال والزمان اللذين لهما علاقة مباشرة بالذاكرة، وأن مبادرة الأشفة لها ارتباط بالتحول التاريخي للمكان والزمان، وهو ما أكدته في كتابه، **الزمان والسرد، الزمان المروي**، ترجمة سعيد الغانمي، ومراجعة جورج زيناتي، ج 3 (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2006)، ص 171-185.

7 ريكور، **الذاكرة**، ص 232.

8 المرجع نفسه، ص 243.

9 Maurice Godelier, *L'idéal et le matériel. Pensée, économies, sociétés* (Paris: Fayard, 1984), p. 228.

10 سعيد بنكراد، "المؤول والعلامة والتأويل"، **مجلة فكر ونقد المغربية**، العدد 16 (شباط/ فبراير 1999)، ص 47-62.

11 Nyckees, p. 65.

12 لتقريب هذه الفكرة بشكل جلي نستعير ما ذهب إليه لوغوف حين اعتبر "سبل العيش فكرة سوسيواقتصادية أساساً، وليست مادية بكل معنى الكلمة"، ومعلوم أن هذا المفهوم يتغير حسب المجتمعات ولا يمكن الركون إلى معنى واحد قد يختزله إلى ضرورة حياتية، بل هو فكرة "تتغير بحسب الفئات الاجتماعية":
J. Le Goff, *La civilisation de l'Occident médiéval* (Paris: Flammarion, Coll. Champs, 1982), p. 197.

الذي يعتبر عنصرًا أساسيًا في استعمال المفاهيم ودلالاتها⁽¹³⁾ في حقبة قد تطول أو تقصر حسب عملية "التحقيب" التي يلجأ إليها المؤرخون لضبط الحقول التي يتناولونها بالدرس، مع العلم بأن غياب تيار أو مدرسة تاريخية مغربية للمفاهيم والمصطلحات المجالية (الإيتيمولوجيا والطوبونيميا) ذات البعد التاريخي يؤثر سلبًا في تناول المتون التي كتبت سابقًا وتحمل في طياتها مفاهيم تفيد في توضيح طبيعة المجال واللغة، وهو ما يفرض عودة الباحث إلى التاريخ الشفهي للمجالات اللغوية الممتدة جغرافيًا و"يكتب تاريخها بصيغة المفرد، كالمقاطع والأحياء، تلك التي تمثل حياتها في تعاقب الأيام"⁽¹⁴⁾. وبهذا الخصوص وأخذًا بنوعية المتداول بين المكونات الاجتماعية، تحيلنا القواعد المتحركة في تداولية المفهوم إلى البنية التي أنتجت سيمًا في علاقتها بعمل الأفراد وارتباط "الواقعي" في مجمله بما ينتجه من أبنية فكرية هي عبارة عن شبكات مفاهيمية تحيل دومًا على مدلولاتها الواقعية من دون أن تتجاوزها. إن المفاهيم هي نتاجات لعلاقة الإنسان بالمجال، واعتبارًا لوجود مفهوم مرتبط بدال معين فإنه يضع شرعيته المبنية على العمل المنجز في المجال باعتباره مختبرًا لكل على محك الانتماء للقاموس الثقافي لكل المكونات الاجتماعية التي نحت لها "متنًا" للتداول يتمدد ويختزل حسب الطبيعة العامة للثروة الثقافية التي هي ملك لكل بتداولها. وهذه المشكلة هي التي تدفع "المؤرخ (د) ينتخب عادة مفاهيم ليصف الخصوصية التاريخية لموضوعاته من دون التفكير تفكيرًا واضحًا في أصلها وفي تسويغها... ولا يعير انتباهًا لحقيقة أن المفاهيم الوضعية التي ينتخبها هي مفاهيم تضر ضررًا كبيرًا بمبتغاه الخاص حين تقييم شبيهاً بين ما هو مختلف تاريخيًا وما هو مألوف"⁽¹⁵⁾. فعملية اختيار المفاهيم وضبطها بما يناسب البحث العلمي أمر قمين بالاهتمام و"على المرء، في فهم التاريخ، أن يغفل مفاهيمه الخاصة وأن يفكر في مفاهيم الحقبة التي يحاول فهمها فقط"⁽¹⁶⁾، لأن ذلك يفضي إلى معرفة ما يمور في المجتمع مع انعكاس ذلك على إنتاج "العلم" بالمجال سواء كان شفهيًا أو مكتوبًا، مما يدفع المهتم بالبحث العلمي إلى تصويب وجهات نظره لتساير الوضعيات المعرفية الناشئة عن التداول اليومي للمفاهيم، لأن ما يثير "مشكلة الفهم... هو القول الشفوي أيضًا"⁽¹⁷⁾ الذي يعتبر سيد الحقب السابقة في غياب التدوين للحوادث، مما يجعل أمر التفكيك والتأويل للمفاهيم والمصطلحات النابضة بالحياة شريطة ضروريًا للإبقاء على المعنى الدال في وضعية جليلة تعكس "معنى ما يُتكلَّمُ به لذاته على نحو محض"⁽¹⁸⁾.

التأثيل والطوبونيميا: نماذج للفهم

بالرجوع إلى الواقع وتقييد المفاهيم "المعبرة عنه، نجد تلازمًا تفرضه تاريخيتها التي توضح مدلولاتها من دون نسيان التغيرات الحاصلة في المجال الذي هو المحصلة النهائية للعمل البشري، مما يدفعنا للقول: هل "المفاهيم" تمثل حقيقة المجال؟ لأجل هذا، وجب العودة إلى الأصول ومعرفة ثرائه المستمد من واقعية المفهوم وارتباطاته اليومية الدالة على معناه مع العلم أن ذلك يستوجب في الكثير من الأحيان الحذر النابع من بنية وطبيعة المفهوم.

مما يجعلنا نأخذ كل المفاهيم في سياقاتها العامة من دون أن نجردها؛ مما قد يعطينا "هويتها" الدلالية.

13 Jacques Guilhaumou, "De l'histoire des concepts à l'histoire linguistique des usages conceptuels," *Revue Genèses*, no. 38 (2000/1), p. 108.

14 جاك لوغوف (إشراف)، التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري (بيروت: مشورات المنظمة العربية للترجمة، 2007)، ص 399.

15 هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج: الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، مراجعة جورج كتورة (طرابلس/ ليبيا: دار أوبا للطباعة والنشر، 2007)، ص 519-520.

16 المرجع نفسه.

17 المرجع نفسه، ص 515.

18 المرجع نفسه.

لماذا نحتاج المفاهيم؟ أَلْضَبِطُ المعنى أم لجعله قابلاً للفهم، أو أن دخوله مجالاً لغوياً ما من أجل إضفاء صبغة وحمولة رمزية يختزنها لأجل التمييز والتفرد قصد الإفصاح عن المكون التاريخي أولاً والاجتماعي ثانياً للمتلقى الذي يظل في غالب الأحيان، غير قادر على التقاط رمزية وجود مفهوم ما، في خطاب معين إلا بعد إخضاعه لقواعد اللغة المؤطرة له في علاقة بالموروث الثقافي الذي يمثل الخيط الناظم لكل الأنساق المجتمعية. وتحليل كل معطيات النسق، خاصة ما تعلق بالمفاهيم الدالة، تحيلنا إلى إبراز الصلة بين المفهوم وتعبيراته والتي لها القدرة على جعل الصيغة التي يتداول بها المفهوم أقرب إلى ما هو واقعي حقيقي، ولا يتوقف فهم هذه التعبيرات على نوعية الصوغ بل على المدلول الإجمالي في النسق اللغوي الذي ينتمي إليه المفهوم بذاته. واعتباراً لحضور الواقع بشكل كبير في صوغ منطوقاته، فمن المفروض التزامها باعتبارها مفاهيم، بشروط إنتاجها ضمن حقولها التي لها تأثير أولي فيها، خاصة المكان والتاريخ والأيدولوجيا⁽¹⁹⁾. فالعلاقة التي يحسدها المفهوم بقيمه الثقافية هو ما يفسر كونه قابلاً للانزياح باتجاه آخر غير ذلك الذي من أجله تم صوغه، للتعبير عن تطوره المنشود في "بعده العملياتي". إن القيام بوضع تأصيل موضوعي للمفاهيم "له قيمة قصوى بالنسبة لتاريخ حضارة الحوض الغربي للبحر المتوسط ويُمكنُ من إعداد منظومات حقيقية للفطيات *phonétique*"⁽²⁰⁾ التي ساهمت فيها حضارات عدة، إضافة إلى التراث الثقافي الذي شيدت صرحه كل مكونات المجتمع وإثباته.

فالبحت التأثيلي على هذا النحو لا يكون في غالب الأحيان بقادر على ضبط العلاقات بين المفهوم ودلالته إلا إذا أخذ في الحسبان وقعه الثقافي الذي يتميز به دون غيره، وهو ما يحيلنا إلى أمثلة للفهم مستمدة من الفترة الوسيطية لتاريخ المغرب الذي لا يزال البحث فيه بكرةً وأن عملية النباش في ثنايا مفاهيمه التي أثنت المتون التاريخية والأدبية قادرة على فك عدة ألغاز سيما ما تعلق منها بالموروث الثقافي المشترك لكل مكونات المجتمع. وأخذ هذا المعطى في الاعتبار يمكن من تخفيف وقع اللغة البربرية التي أكد دارسو الطوبونيمات على كونها "صعبة مع وجود العديد من المطبات حتى بالنسبة للبربر أنفسهم"⁽²¹⁾، مما يحتم الحذر في تناول المفاهيم التي تخفي بعضاً من أسرارها التي لن يكشف عنها إلا باستعمال التراث الثقافي لمكونات المجتمع الإثنية. فالتأثيل إذن، يدفعا لمحاولة فهم الكيفية التي تسرب بها المفهوم إلى لغة ما وفي أي وسط تم توظيفه⁽²²⁾، من دون أن يهدف ذلك إلى تثبيت تداوله الحالي⁽²³⁾ الذي لن يكون بمنأى عن التداولات السابقة التي راعت خصوصية التسمية ودلالاتها الرمزية، الشيء الذي يمكن من فك ألغاز عدة تكتنف هذه العملية في الزمان والمكان، مع العلم بأن ما يمرر من مجال سوسيوثقافي إلى آخر يحافظ على "معناه الحقيقي" *Étymon*⁽²⁴⁾ وإن تغيرت أصول مكوناته اللفظية، وهو ما يدفعا لدراسة مفهوم طوبونيمي واحد على سبيل الاستئناس مع ما له من وقع على المجال الحضري لمدينة فاس الوسيطية وفي ارتباطه بمكونات المجال "الملكي" للسلاطين المرينيين.

19 Jean-Pierre Cuq et Isabelle Gruca, *Cours de didactique du français langue étrangère et seconde* (Grenoble: PUG, 2005), p. 77.

20 Georges S. Colin, "Note de dialectologie arabe. Étymologies magribines," *Hespéris*, T. VI (1926), p. 56.

حاول كولان في مقاله الذي نشر تباعاً في مجلة هيسبيريس لسنة 1927 المجلد 7، والمجلد 10 لسنة 1930، أن يضع بداية حقيقية لمشروع يراعى فيه أصول الكلمات والمفاهيم المتداولة في كل المجالات الثقافية للمغرب الأقصى، غير أنه لم يوفق في ضبط أصول بعضها، وذلك لكون رد أصولها للغة الإغريقية أو الرومانية وفي بعض الأحيان للبيزنطية أثر في طبيعة البحث وجعل منه تكراراً لما تم تداوله في بحوث سابقة تناولت أصول المفاهيم في اللغة اللاتينية.

21 Jean Del Pérugia, "Noms de lieu d'origine berbère dans le sud-ouest de la France," *Hespéris Tamuda*, vol. XVIII (1978-1979), p. 14.

وظف "ديل بيروجيا" التقارب الكبير في اللغة خاصة البربرية لدراسة الطوبونيمات المشابهة بين ضفتي البحر المتوسط، وكذا جذور مكوناتها التي تغيرت بفعل التداخل اللغوي الحاصل بفعل التناقص، واعتبر النماذج المكونة لأسماء الأماكن تأخذ أهميتها الكبرى من هذا التكوين اللغوي الذي يحيل إلى أصولها القديمة. والمقال هو تأسيس جدي لإعادة النظر في الطوبونيمات وتأثيلها الذي سيساعد الباحث للعودة إلى الأصول الأولى لها وقرآتها على ضوء المستجد التأثيلي.

22 Antoine Meillet, *Linguistique historique et linguistique générale* (Paris: Champion, 1975), pp. 292-293.

23 P. Guiraud, *L'Étymologie. Coll. Que sais-je?* (Paris: PUF, 1964), p. 7.

24 Maurice Tournier, *Des sources du sens. Propos d'étymologie sociale*, T. 3 (Lyon: ENS Editions, 2002), p. 19.

المُصَارَة

اعتبر هذا "الطوبونيم" إشكاليًا لما نسج من حوله من شروح من دون أن يصل البعض ممن تعرض له إلى "معناه الحقيقي"، الذي ارتبط أصلًا بالكيفية التي تم تناوله بها مما زاد الأمر إبهامًا. وفي هذا الباب يصح التأثيل ذا فائدة قصوى للإفصاح عن المعاني الدقيقة التي يختزنها المفهوم في "مجال يُنتج ويعيد إنتاج نفسه في محاولة للتهرب من الاختلال المتصاعد للكون" (25) الذي هو أحد عناصره المعبرة عن طبيعته التي هي عين الوجود أصلًا. وقد اعتبر البعض هذا المفهوم "كلمة عربية مجهولة في الشرق الإسلامي" (26) مما يحيلنا إلى البحث عن أصولها في تراث الغرب الإسلامي الذي حاول طريس بالباس القفز عليه للبحث في آخر لم يورد أصلًا هذا المفهوم سواء في قواميسه الحضارية أو غيرها ممن تناولت المجال الثقافي للمجتمع الشرقي في غناه. وزاد الأمر إبهامًا حين يحاول الدارس نفسه ربط المفهوم بالأندلس وقرطبة حيث كانت مُصارتها "الأولى بين المُصارات الأندلسية، وأكثرها شهرة، وتمتد على سطح يقع في الجنوب الغربي للمدينة، وعلى الضفة اليمنى للوادي الكبير" (27)، الشيء الذي دفعه للإقرار بأن طبيعة أرضها المسطحة جعلت منها مكانًا ملائمًا للقيام بالاستعراضات العسكرية والاحتفالات العامة، وجعلها البعض الآخر مكانًا لبيع الأسرى من عرب وبربر، فقرطبة على أيام والي الأندلس ثعلبة بن سلامة العاملي سنة 125هـ/743م (28)، استعملت سوقًا للنخاسة بعد الحروب. ويبدو أن مدلول هذا الطوبونيم ظل عصيًا على الفهم بالنسبة إلى طريس بالباس الذي لم يجد ما يبرر به ديمومة استعمال "نفس كلمة مصارة لمعاني مشابهة لأصل مدلولها" (29)، علمًا أن المدلول لن يتغير وأن "معناه الحقيقي" يظل حاضرًا وإن غابت معالمه التي بواسطتها يتفرد. فـ "المُصارة" التي اعتبرت في الكثير من المصادر بستانًا جليلًا للسلطان (30)، "ظهرت متزامنة مع كلمتي الملاح وحمص" (31)، مما يؤكد أن المفهوم في رسمه وكتابته العربية "لا يعني أنه كذلك. فالأفعال الثلاثية العربية عندما تكون في الماضي لا يرفع أولها البتة إلا إذا بنيت للمجهول، وأما أن تكون مبنية للمعلوم ومضمومة الأول فربما دخل هذا دائرة الاستثناء والشذوذ عن القاعدة، وهو ما قد يفسر عدم الإجماع على كتابته" (32). ويعطينا إمكانية البحث باتجاه آخر غير هذا الذي استكان له مجموعة من الباحثين من دون أن يعولوا على استنطاق التراث الثقافي لكل مكونات المجال الذي تم البحث فيه مع الاستفادة من الأعمال التي قام بها الباحثان بريسوليت ودولاروزير (33) والتي أكدت أن المكان لم يكن أبدًا مستويًا بل مرتفعًا لوجوده في المجال الشمالي لفاس الذي يعتبر بداية حقيقية للمرتفعات التي هي بداية الصعود باتجاه "زالغ" على العقب التي تكشفها تلة في مكان أدنى من قصبه ابن دباب الحالية، وتشغل مقبرة الصهريج الخارجية الجزء الشمالي لما كان يعرف بالمُصارة قديمًا" (34).

25 Hildebert Isnard, *L'espace géographique*, Coll. Le géographe, (Paris: PUF, 1978), p. 18.

26 ليوبولدو طريس بالباس، التاريخ الحضري للغرب الإسلامي، الحواضر الأندلسية، ترجمة محمد يعلى (الرباط: دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2007)، ص 365.

27 المرجع نفسه، ص 366.

28 ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، ج 2 (بيروت: دار الثقافة، ط 2، 1980)، ص 33. يورد ابن عذاري أنه "في سنة 125، ركب أبو الخطار البحر من ناحية تونس في المحرم، وحل بقرطبة؛ فألقى ثعلبة بن سلامة بالمصارة، ومعه الأسرى والسبي من عُرب قرطبة". ويضيف ابن عذاري من قول صاحب "كتاب بهجة النفس" إن ثعلبة بن سلامة "لما هزم البربر، سبي ذراريهم... فأقبل إلى قرطبة بعدد من السبي كثير، حتى نزل طرف المُصارة من قرطبة، ومعه الأسرى والسبي من عرب البلد والبربر، وهو يبيع السبي في النداء" (ص 33-34). وهي إشارة إلى "المصارة" بأرض قرطبة من دون ذكر لطبيعتها.

29 بالباس، ص 368.

30 ابن فضل الله العمري، مسالك الأبحار في ممالك الأمصار، تحقيق مصطفى أبو ضيف (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1988)، ص 116. ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قدامح الأدب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد ابن شقرون (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990)، ص 179-180.

31 محمد الغرايب، مجتمع يهود المغرب الأقصى الوسيط: دراسة تاريخية اجتماعية (الرباط: مطبعة ربا نيت، 2012)، ص 283.

32 المرجع نفسه، ص 283-284.

33 H. Bressolette et J. Delaroziere, "El Mosara, jardin royal des Merinides," *Hesperis Tamuda*, vol. XVIII (1978-1979).

34 Ibid. p. 52.

يبدو من خلال هذه الاستنتاجات التي تم التوصل إليها بفضل المسح الجغرافي المعتمد في هذه الحالات التي يكون الحسم فيها غير مؤكد، أن المصارة مرتفعات وليست بالأرض المستوية، وأن عملية ربيها ارتبط بالناعورات التي بلغ عددها ثلاثاً في أول الأمر قبل أن يتم تعويضها بناعورتين اثنتين لرفع الماء لروض السلطان⁽³⁵⁾. فما جاء عند النميري وما أورده المنوني⁽³⁶⁾ من كون "جنة" السلطان بمرتفع خارج أسوار المدينة يجعلنا نتجه صوب التراث العبري، كما ذهب إلى ذلك الباحث محمد الغرايب من كون المصارة "تحريف طفيف للمصورة والتي تعني في العبرية المدرسة التي يهتم فيها فقهاء اليهود بشرح وضبط التوراة"⁽³⁷⁾. ف"المعنى الحقيقي" هنا غاب في معجم وظهر في آخر وذلك لتقارب المصدر اللغوي والرسم الكتابي؛ مما أحدث نوعاً من البلبلة في إرجاعه لجذره الذي به يفرض دلالاته التي هي مصدر قوته الرمزية، لأنه "إذا كان لمفهوم دلالة ما في فترة ما فالأنة، وفي نفس الفترة، وفي تضاد مع كلمات أخرى من نفس المعجم، لا يمكن أن تأخذ نفس الكلمة في فترات مختلفة دون اعتبارات لأثر بيئاتها المتعاقبة"⁽³⁸⁾.



35 النميري، ص 179-180.

36 محمد المنوني، ورفقات عن حضارة الميرانيين (الدار البيضاء: مطبعة النجاة الجديدة، ط 3، 2000)، ص 62-64.

37 الغرايب، ص 285.

38 R. Barthes et al., *Exégèse et Herméneutique* (Paris: Éditions du Seuil, 1971), p. 309.

المراجع

العربية

- ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة. تحقيق وتقديم عبد السلام الشدادى. الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، 2006.
- بالباس، ليوبولدو طريس. التاريخ الحضري للغرب الإسلامي، الحواضر الأندلسية. ترجمة محمد يعلى. الرباط: دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2007.
- بنكراد، سعيد. "المؤول والعلامة والتأويل". مجلة فكر ونقد المغربية. العدد 16 (شباط/ فبراير 1999).
- ريكور، بول. الذاكرة، التاريخ، النسيان. ترجمة وتقديم جورج زيناتي. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2009.
- _____ . الزمان والسرد، الزمان المروي. ترجمة سعيد الغانمي. مراجعة جورج زيناتي. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2006.
- عبد الرحمن، طه. فقه الفلسفة. الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 1999.
- العمري، ابن فضل الله. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. تحقيق مصطفى أبو ضيف. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1988.
- غدامير، هانز جورج. الحقيقة والمنهج: الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية. ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح. مراجعة جورج كتورة. طرابلس/ ليبيا: دار أوبا للطباعة والنشر، 2007.
- الغرايب، محمد. مجتمع يهود المغرب الأقصى الوسيط: دراسة تاريخية اجتماعية. الرباط: مطبعة ربا نيت، 2012.
- لوغوف، جاك (إشراف). التاريخ الجديد. ترجمة محمد الطاهر المنصوري. بيروت: مشورات المنظمة العربية للترجمة، 2007.
- المراكشي، ابن عذاري. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال. ط 2. بيروت: دار الثقافة، 1980.
- المنوني، محمد. ورفات عن حضارة المرينيين. ط 3. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2000.
- النميري، ابن الحاج. فيض العباب وإفاضة قدامح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب. دراسة وإعداد محمد ابن شقرون. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.

الأجنبية

- Antoine Meillet, *Linguistique historique et linguistique générale*. Paris: Champion, 1975.
- Barthes, R. et al. *Exégèse et Herméneutique*. Paris: Éditions du Seuil, 1971.
- Bressolette, H. et J. Delaroziere. "EL MOSARA, jardin royal des Merinides." *Hespéris Tamuda*. vol. XVIII (1978-1979).

- Cabre, Maria-Teresa. *La terminologie: Théorie, Méthode et application*. Monique C. Cormier et John Humbley (trad.). Paris: Ottawa/ Armand Colin, 1998.
- Colin, Georges S. "Note de dialectologie arabe. Étymologies magribines." *Hespéris*. T. VI (1926).
- Cuq, Jean-Pierre et Isabelle Gruca. *Cours de didactique du français langue étrangère et seconde*. Grenoble: PUG, 2005.
- Del Pérugia, Jean. "Noms de lieu d'origine berbère dans le sud-ouest de la France." *Hespéris Tamuda*. vol. XVIII (1978-1979).
- Godelier, Maurice. *L'idéal et le matériel. Pensée, économies, sociétés*. Paris: Fayard, 1984.
- Guilhaumou, Jacques. "De l'histoire des concepts à l'histoire linguistique des usages conceptuels." *Revue Genèses*. no. 38 (2000/1).
- Guiraud, P. *L'Étymologie*. Coll. *Que sais-je?* Paris: PUF, 1964.
- Hildebert, Isnard. *L'espace géographique*, Coll. *Le géographe*, Paris: PUF, 1978.
- Le Goff, J. *La civilisation de l'Occident médiéval*. Paris: Flammarion, Coll. *Champs*, 1982.
- Margot, J. C. *Traduire sans trahir: La théorie de la traduction et son application aux textes bibliques*. Lausanne : L'âge d'Homme, 1979.
- Nyckees, V. *La Sémantique*. Paris: Belin, 1998.
- Tournier, Maurice. *Des sources du sens. Propos d'étymologie sociale*. Lyon: ENS Editions, 2002.